**في وداع القرن العشرين**

انّه القرن العشرون

هذا الذي يستعدّ للرحيل تاركًا المجال للقرن الواحد و العشرين الذي بدأ بعضهم يستشرف ما سيكون فيه من وقائع و ما سيَسمُه من خصائص، لكننا قبا أن نرنو اليه لا بأس أن نقف عند أهمّ المقولات الأدبيّة التي كانت بمثابة المحطات الرئيسية في مسيرة الأدب العربي حيث ظلّت كالمراكز التي دارت حولها النصوص فقد كتبها الأدباء متأثرين بجملة ما ورد فيها من نظريات متنوّعة و متوالية طيلة هذا القرن..

عندما انبلج فجر القرن العشرين كان العالم قد انتقل الثّفل فيه الى أروبا بما فيها من مخترعات ميكانيكية ستكتسح بفضلها أصقاع الدّنيا و ستمتدّ هيمنتها الى بقية الشّعوب التي ما يزال - وقتئذ - الكثير منها خارج حركة التاريخ, و البعض الآخر لمْ تُجْده نفعا محاولات الاصلاح فيه فاندحر خائبا محتميا بأسوار مُدنه العتيقة بينما ترك سواحله و الثغور فيها للأساطيل و للجاليات الافرنجية كما حدث بالنّسبة لأغلب بلاد العرب و المسلمين و لأفريقيا و جنوب آسيا.

**الأسئلة الأولى**

في تونس كانت الطّلائع الأولى من اللذين تخرّجوا من المدرسة الصّادقية و من المدرسة الخلدونية قد أقرّوا بأنّ الاستعمار قد بات مع أواخر القرن الماضي أي القرن التاسع عشر حقيقة باتّة و أمرًا واقعًا لا بدّ من التعامل معه في زمنهم الجديد بحذر و حنكة فلا البلاغة و لا البديع يمكن بهما ابلاغ الوعي لبني وطنهم بل انّ البعض منهم اتّخذ من لغة المستعمر أداة كي يُوصل حقّهم في الحياة الكريمة متسلحا بشعارات الاستعمار التي بها سمح لنفسه بدخول البلدان الأخرى كنشر الحضارة و المدنيّة و حماية الأقليّات و نشر الأمن و الاخاء.

في هذا السياق التاريخي العام بدأت الدّعوة الى تحرير الكتابة من قيود السّجع في النّثر و من الأغراض القديمة في الشّعر و لعلّ أولى المبادرات الصّريحة لهذه الآفاق الجديدة في الكتابة بتونس كانت على منبر مجلة ( السّعادة العظمى) ضمن أعدادها الأولى الصّادرة عند بداية القرن بل انّ الأديب محمد السّنوسي المتوفي سنة 1900 قد فتح المجال لوصف المخترعات العصرية مثل القطار منذ أواخر القرن التاسع عشر في كتابه الرّحلة الحجازية ( سنة 1883) و قد جعل لها مقدمة منها قوله : هذه قصيدة فريدةٌ في المخترعات الجديدة... عسى فيما بعدها أن يأتي من ينسج على منوالها, و مطلعها يقول:

أرأيت كيف تقارُب البلدان

بالمُزْجيات جرتْ على القضبان

ففي ما كان الأدب العربي يحاول أن يسير على نسق العصر -بالنسبة للعالم المتقدم طبعا – و ذلك بأن تخلّص من شكل المقامة الى القصّة و من الخطبة الى المقالة من الإخوانيات و المدائح الى وصف المخترعات و الوطنيات في الشّعر، نعم في ما كان يخرج من النمط القديم كان يكتشف نوعا جديدا من الكتابة الأدبية الأوروبية ألا وهي المدرسة الرومنطيقية مع أدباء المهجر خاصّة.

ثمّة ملاحظات لا بدّ أن نقف عليها بعد هذا الرّدح من الزّمن على قيام تلك الحركة الأولى في مطلع القرن العشرين منها خاصّة:

**أولا :**

ان الكتابة ضمن المنظور الرّومنطيقي قد وافقت مُهجة ذلك الجيل في التحرّر من قيود القديم من ناحية و في الثورة على مظاهر التسلّط و الاستعمار من ناحية أخرى و بينما اتّجه بعض أدباء تلك الحركة الى الطبيعة صوّب البعض الآخر وجهته الى المجتمع و قد نجد الاتجاهين لدى نفس الأديب، غير أن الاتجاه الاجتماعي سيتطوّر بعدئذ و يصبح أساس المدرسة الواقعية في الأدب العربي بعد الحرب العالمية الثانية بينما سيتجذر الاتجاه الطبيعي الى الأدب الذهني و الصّوفي بعده.

**ثانيا:**

عندما بدأ الأدب الرّومنطيقي عند العرب في الظّهور خلال أوائل هذا القرن فانّه كان قد ولّى وأدبر عهده في أوروبا منذ أواخر القرن التاسع عشر على أقصى تقدير بحيث أن اللّقاء بين الأدب العربي والآداب الغربية جاء متأخرا بمدرستين على الأقل هما المدرسة الرومنطيقية والمدرسة الواقعية اللّتان ظهرتا خلال القرن التاسع عشر في البلدان الغربيّة مما جعل الأدب العربي الى اليوم يلهث وراء الموضات الأدبيّة الأوروبية سواء في الشعر أو القصّة والرواية أو في النقد والمسرح بالإضافة الى الفنون الأخرى طبعا.

**ثالثا:**

بينما كان الأدباء العرب ينسخون الى حدود متفاوتة النّصوص الأصلية من الأدب الرومنطيقي الغربي كان الأدب الفرنسي و الانقليزي و الاسباني و حتى الأمريكي قد فتح الادباء في تلكم البلدان مجالات أخرى جديدة في الابداع بداية من الرّمزية و التعبيرية مُرورا بالسريالية و الدادائية و ووصولا الى الالتزام و الوجودية مع منتصف القرن و لا يمكن استثناء الاّ الكتابة ضمن المدرسة الواقعية الاشتراكية التي سُرعان ما سار بعض الأدباء العرب على نسقها و لعلّ ذلك يعود الى الظروف التاريخية من ناحية الى تجذّر الأدب الواقعي في التراث العربي الأدبي عُموما.

من هذه الملاحظات نخلص الى أنّ المعاصرة كانت تعني بالنسبة الى ذلك الجيل أمرين أساسيين يتمثّل الأوّل في قصد التعبير عن عواطف وأفكار وظروف الحياة في هذا العصر بلغة وأساليب جديدة، أمّا الأمر الثاني من المعاصرة فهي محاولة اقتفاء أثر الآداب الغربية في طرق المواضيع وفي النّسج على منوالها ولعلّ منهجيّة الأدب المقارن تفرض نفسها في هذا المجال لإثبات مدى الائتلاف والاختلاف بينها جميعا.

**زلزال الأقلام**

ما كادت الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها حتّى كانب القصائد الرومنطيقية قد استنفذت طاقتها في التعبير و التجديد و ما القصائد التي قيلت بعدئذ الّا ترديد باهت لشعراء الثلث الأوّل من هذا القرن – القرن العشرين – و قد بدأ عند الخمسينات منه يظهر جيلً آخر قد فتح عيونه على أقطاب الرومنطيقية العربية لكنّه بالإضافة الى ذلك كتن مطّلعا الى حدود المواكبة أحيانا على آخر الكتابات في اللغة الفرنسية و الانقليزية و الإيطالية ممّا هيّأه الى تعديل ساعاته على المستجدات الحديثة في كل شيء هكذا اذن ظهرت مرحلة الحداثة في الأدب العربي التي استمرت من منتصف هذا القرن الى حدود حرب الخليج في أوائل 1991.

انّ كلمة الحداثة قد راجت في أغلب الخطابات التي كانت تتمحور حول الأدب بالإضافة الى المجالات الأخرى الفكريّة و الفنّية و قد وصل أمر الحداثة الى المواضيع الاجتماعية الأخرى، كُلّ يُدلي بدلوه في هذه المسألة من الشرح اللغوي الى المنهج البنيويّ و من المنطلق الإيديولوجي الى التحليل النفسيّ, و من المرجع التراثيّ الى المنوال الغربي.

لقد اختلطت المفاهيم في أمر الحداثة الى ذروة التناقض أحيانا و لكنّها في الشّعر أمست خريطة بلا مفاتيح اذ تعدّدت فيها الألوان و الأشكال فمن عودة الى الجزالة في اللّفظ و الْتزام العمود الى الخروج عن التفعيلة و القافية الى حدّ أن تعض النصوص الشّعرية باتت تعتمد على تلصيق العناوين المتنوعة من الصحف و المجلات و الأفلام و غيرها بل انّ أحد الشعراء منهم عمد الى الوقوف صامتا أمام الجمهور زاعما أنه يقول قصيدة صامة بينما الآخر نشر صفحات بيضاء في احدى مجموعاته الشّعرية باعتبارها قصائد بيضاء أمّا بعض الشّعراء الآخرين فانه ترك بعض السّطور فارغة كي يعمد القارئ الى الكتابة فيها... الى غير ذلك من الأساليب الغريبة للبحث عن الجديد الصّارخ ليس في الشّعر فحسب بل حتّى النّصوص القصصية قد قرأنا لدى تعض كتّابها مثل هذه النّزعات التي لم تجد في الواقع كبير مناصرة بل هي الى المخالفة و المصادمة تميل بحثا عن التميّز و البروز.

انّ مرحلة النصف الثاني من القرن العشرين و الى حدود حرب الخليج قد عرفت عديد الندوات و المهرجانات في مناسبات عديدة من ناحية , أمّا من ناحية أخرى فقد تعدّدت المنابر الأدبية فاذا كانت القاهرة في النّصف الأوّل من القرن تعتبر العاصمة الثقافية الأولى بلا مُنازع بما صدر فيها من كتب و مجلّات فانّ عديد العواصم العربيّة ستكتسب حضورها في ما بعد بداية من بيروت الى بغداد و دمشق ثمّ صنعاء و طرابلس و تونس و الرّباط و عمّان بسبب الأنشطة الأدبية و الثقافية التي الْتأمت في تلك العواصم في عديد المناسبات ثمّ لأن أغلب العواصم العربيّة حاولت اصدار مجلّات تكون منابر للحركة فيها و كذلك لتكون قُطْبا في اقليمها بالإضافة الى صدور عديد الجرائد و المجلات في العواصم الأوروبية ممّا نتج عن كلّ تلك المنابر تشتّت الأقلام و الكتابات بحيث من الصّعب أن نرصد أهم التجارب فيها و متابعة المسيرة الأدبية في مختلف أرجاء البلاد العربيّة.

ثمّة سماتٌ تركت بصماتها في الآثار الأدبية التي كتبها الأدباء العرب في النصف الثاني من القرن العشرين سواء في الشعر أو في القصّة و الرّواية و المسرح بل حتّى في النّقد و لعلّ أهمّ تلك السّمات جميعا تبدو في تمثّل النّصوص الأوروبية الحديثة و كذلك في تضمين علامات بارزة من التراث الى حدود الاقتباس حينا من بعض النّصوص الأدبية في الأدب الفرنسي أو الانقليزي و الى درجة التضمين لكامل الفصول من بعض الكتب القديمة في التراث’ أمّا فب النقد فانّ التّطبيق الآلي للنظريات الغربيّة يكاد يكون بصفة مباشرة على نصوص الأدب العربيّ.

ان كتابات أدباء النّصف الثاني من هذا القرن كانت مشدودة في غالبها الى مرجعين كبيرين هما المرجع التراثي والمرجع الأوروبي.

وإذا كان القرن العشرون قد بدأ بالدّعوة الى العصرية والتجديد فانّه انتهى الى فسيفساء شديدة التنوّع وحادّة الاختلاف في الألوان والأشكال حتّى بات أمر الأدب لا يستقرّ على حالة الّا لينقلب بعدئذ عليها ويبحث عن أخرى.

بل انّ أمْرا غدا مُسْتحدثا حقّا في تاريخ الأدب العربي على مدى عصوره السابقة ويتمثّل في انصراف عدد مهمّ من الأدباء العرب الى الكتابة باللغات الأجنبية نتيجة لتعلّمهم تلك اللّغات في ظروف تاريخية معيّنة وكذلك لفُسحة التعبير الأرحب التي يجدونها فيها اذا قيست بمجال القول في لغة الضّاد.

**تلاشي حدود الأشكال**

أمّا من ناحية أخرى فإننا نلاحظ التلاشي المُذهل للأشكال وللأجناس الأدبية لدى أدباء الحداثة عُمُوما ففي القصّة والرّواية ما عادت تقوم فيهما الأساليب على الأحداث والشخصيات بل صارت الوقائع تمضي بين السّرد والحديث الباطني مرّة وبين توازي القصتين أو الرّوايتبن في القصّة أو في الرّواية الواحدة وقد وصل الأمر الى احياء الشخصيات القديمة في التراث وجعلها كأنّها تسير في شوارع مدن هذا القرن بحيث أنّ الواقع والخيال والتضمين والرّمز وغيره قد صار من جُملة الكتابات القصصية الرّوائية الحديثة.

أمّا النصوص الشّعرية فقد تمّ الخروج فيها نهائيا عن العمود والتفعيلة والقافية وصارت قائمة على إيقاع آخر يكمن مرّة في الأسلوب ومرّة في المباغتة ومرّة أخرى في المراوحة والتكرار وأحيانا يقوم على السّرد والومض بحيث أنّ كلّ نصّ تقريبا قد اكتسب خصائصه في الأسلوب والتراكيب والبناء.

انّ حدود النّثر والشّعر في بعض النّصوص قد تلاشت أو كادت بحيث تقاربت الأشكال والأجناس حتّى صار بعضها يُفضى الى بعض وحتّى أمكن قراءة هذا في ذلك ولعلّ التطوّر الذي نشأ في الأسرة والمجتمع بما انعكس منه على الفرد قد يفسّر بعض الشيء هشاشة الأشكال التقليدية في الكتابة الأدبية خلال النّصف الثاني من القرن العشرين من ناحية وتنامي البحث عن أشكال أخرى بديلة في الكتابة عُموما.

انّ الأمر يحتاج الى الزّمن الضروريّ للبثّ في مدى صلابة وإضافة النّصوص التي ظهرت خلال سيادة مقولات الحداثة عبر تجاربها المتنوعة في النّصف الثاني من هذا القرن، وفي انتظار ذلك يمكن دراسة جزء مهم من نصوصها وأعلامها باعتبار أنّ ذلك مُتوفر من حيث الكم والنّوع على الأقل.

عندما نصل الى الهزيع الأخير من هذا القرن نجد أنفسنا – نحن العرب – مرّة أخرى أمام أحداث لسنا مهيئين الى التعامل معها أو تحدّيها بينما نتحمل و حدنا تبعاتها .. انّها حرب الخليج بوقائعها الدامية ومخلّفاتها الرّهيبة على مستوى الخريطة العربيّة بالإضافة الى انقساماتها الدّائمة وحروبها الأهلية المتناثرة بينما العالم يخلع لبوسه القديم المهترئ من سنوات الحرب الباردة.

في هذه السنوات الأخيرة من هذا القرن يبدو البوْن بيننا وبين العالم المُتحضّر أوسع ممّا كنّا نظن فنحن نسير على نسق النّملة والدّنيا حولنا تمضي بخطوات العملاق.

لقد صارت الأميّة في عصر العولمة ألا تعرف استعمال الانترنيت فشتّان بين المعرفة عندهم وعندنا!